الذى ينسلم إلى فضاء الجوكوة فى أعلى السقف يتصرف منها الدخان »

ولقد وصف المؤرخون قصور أمراء الأندلس وصفاً يقصر عن إدراك حقيقته الخيال ؛ فهل علمت أن قصورهم كانت مجهزة بأنابيب معدنية لتوزيع الماء على الأجنحة المختلفة ، وأن الماء كان يجرى دافئاً فى أثناء الشتاء وبارداً مثلوجاً فى أثناء الصيف ، وأن جهازات التهوية الصناعية كانت فى الأشياء التى اخترعها العرب فى فن البناء واستخدمت لأول مرة فى قصور الأندلس ؟ قيل إن من المفاخر التى كان يزهى بها أصحاب القصور ما تحوى من المكتبات النادرة . ويكفى أن نعرف أن مكتبة الخليفة الحاكم رصدت كتبها فى فهرس بلغت مجلداته أربعين مجلداً

كان قصر الحمراء مقر عبد الرحمن الثالث وما تزال آثاره حتى اليوم تحفة نادرة من تحف الفن العالى . كانت واجهته مقامة على ١٢٠٠ عمود من الرخام جلبت من مختلف بقاع العالم المتمدين : من اليونان وإيطاليا وأفريقية ؛ وكان البهو الأكبر مغشى بالذهب الخالص ؛ وكان بالقصر ٦٣٠٠ من الحاشية والخدم ، ومن حوله ثكنات بها ١٢٠٠٠ من الحرّاس لباسهم من الحرير ومعاطفهم مطرزة بالذهب

كل هذا المجد يصغر ويتضاءل إلى جانب ما خلف ابن باجة ، وابن الطفيل ، وابن رشد وغيرهم من صور الفكر التى أصبحت بعد زمان النور الذى استهدى به العقل الأوربى وعنه أخذ ليؤسس نهضة أوربا الحديثة .

ثم نمنا واستيقظ الزمان ، ورحنا فى سبات وعجلة الدهر من حولنا تدور ، حتى أصبحنا ولسان حالنا يقول مع شاعرنا حافظ :

لم يبق شىء من الدنيا بأيدينا ... إلاّ بقيـة دمع فى مآقينا
كنا قلادة هذا الدهر فانفرطت ... وفى يمين العلا كنّا رياحينا
كانت منازلنا بالعز شامخـة ... لا تطلع الشمس إلا فى مغانينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة ... لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا ... شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا مال ولا نشب ... ولا صديق ولا خل يواسينا

هذا طرف من مجد العرب والاسلام وصورة تذكرنا أننا كنا مناثر الأرض وحماة الحضارة والعلم والثقافة والمعرفة . فلنذكر هذا ولنذكره دائماً عسى أن تنفعنا الذكريات

اسماعيل مظهر

من بريد الفن

تمر بى فى الحياة لحظات أود فيها لو أسأل الله أن يفك أجزائى ويعيد بنائى ، « طبقاً لشروط أخرى ومواصفات جديدة » كما يقال فى لغة أهل العمارة والهندسة ؛ ولكن ... سرعان ما أذكر كلمة « باسكال » : « لو أن أنف كليوباترا كان أكبر قليلاً مما كان لتغير وجه التاريخ » . هذا صحيح . ومن يدرينى . لعل قائلاً يقول فى أمرى غداً : « لو أن أنفه كان أصغر قليلاً مما كان لتغير وجه الأدب العربى الحديث » . ولكن الواقع الذى أوقن به أن تركيب الإنسان كتركيب العقاقير . فقليل من « السلامكى » على قليل من الشمر واليانسون ينتج « مليناً » للأمعاء . كذلك حياة كحياتى مع قليل من ميولى وقليل من مطالعاتى ... ينتج أدباً كأدبى ... فكيف إذن يغير الله بعض عناصر تركيبى دون أن تتغير النتيجة كل التغيير . وما الذى يحمله على ذلك ، إلا رغبتى ؟ ومتى كنا نخلق طبقاً لرغباتنا ؟ لقد قرأت يوماً كلمة عنى فى إحدى الصحف قيل فيها : « إنى أريد أن أعيش لفنى ، ولفنى فقط » . فابتسمت وقلت : « أنا أريد ؟ » كلمة أريد « تبدو ساذجة مضحكة من أفواه البشر وهم فى حضرة « القدر » ! ما أنا إلا تركيب كيميائى مثل ذلك اللين ، « لا بد له » بهذه العناصر مجتمعة » أن ينتج هذا « المفعول » الذى يسمونه « الفن » أو « الأدب » لافرق فى نظر «الطبيعة» بين « النحلة » و« الأديب » . كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار ، لينتج عسلاً آخر النهار . ومن هذه « المادة » الحلوة يصنع أحدهما بناء فصيلته ، ويقيم الآخر بناء أمته . ولو سئلت « نحلة » عن رأيها فيما تفعل لما وجدنا عندها رأياً ولا إرادة . إنما هى تفعل ما تفعل بدافع من تركيبها « البيولوجى » . كذلك « الأديب » مدفوع إلى التفكير والانتاج بحكم هذا التركيب . ولطالما تفجرت ثائراً : « لماذا ولمن أقتل نفسى بهذا العمل المضنى ؟ » . فأسمع الجواب من أعماق : « إنك لا تنتج لشىء ولا لأحد ، ولكن لأنك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك . ما أنت إلا نحلة تفرز الأدب شاءت أو كرهت .

توفيق الحكيم